بيْن الدّعوةِ . . والدّعاية

كانت الدعاية في المبدأ ترادف كلمة الدعوة ، لأن النبي ﷺ استعملها مكان الدعوة في رسائله إلى كسرى وقيصر بقوله : « أدعوك بدعاية الإسلام » .

وجاء الاصطلاح الحديث فكسا الدعاية لونًا جديدًا بتغيير يسير ، فالدعوة إرشاد وتوجيه .

والدعاية : ترغيب وترويج للحق أو للباطل .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود ـ شيخ الأزهر الراحل ـ رحمه الله « إن أية دعوة مهما كانت من السمو لا يمكن أن تجتذب إليها الأنظار إلا إذا كان لها دعاية ، والأحزاب التي تقوم بغير دعاية ، والبضائع لا تروج بغير دعاية .

ولقد أخذت الدعاية في العصر الحديث مكانًا يجعلها في الدرجة الأولى من الأهمية »[1] .

ويقول الشيخ علي محفوظ :

« الدعوة حياة كل مبدأ أو فكرة أو عقيدة تحمل عليها الشعوب والأمم ، سواء أكان ذلك المبدأ أو تلك الفكرة حقًّا أم باطلاً ، ولقد دلت التجارب على أن الأديان ، والمذاهب إنما تقوم بالدعوة ، وما تداعت أركان دين أو مذهب بعد قيامه ، ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها ، ولا تزايلت نزعة من النزعات بعد أحكامها إلا بترك الدعوة .

---

(١) أوربا والإسلام ص ١٩ من سلسلة الثقافة الإسلامية .

ولقد علمنا التاريخ أنه ما قام أحد يدعو إلى شيء ، ويشمر ساعد الجد في الدعوة إلى ذلك الشيء إلا وجد أنصارًا وأتباعًا ، وها نحن أولاء نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعاية ، والمذاهب الحق تتضاءل بإهمال الدعوة ، ولو كان الحق يقوم بنفسه وينتشر بذاته لأنه الحق لما فُرِض علينا الجهاد في سبيل الله ، ولما بُعِث الأنبياء والمرسلون لإظهار الحق ونصرته»[1] .

«قلت» : ومما يعرف به قدر أهمية الدعاية أنه إذا كان في دنيانا اليوم تاجران ، أحدهما يبيع البضاعات النفيسة القيمة ، ولكنه يهمل شأن الدعاية ، ويكتفي بمعرفة أصحابه ، وثانيهما يبيع الأشياء الخسيسة ، ولكنه شمر عن ساعد الدعاية للقريب والبعيد ، ويعرض سلعته على من يحبها ومن لا يحبها ، فإن البسطاء - وهم الأكثرون - يقبلون على صاحب الدعاية ويصدقونه ، ويعرضون عن ما لا دعاية له ، ويقولون : لو كان صادقًا لما سكت عن الدعاية .

● مضرة الدعاية الجوفاء

تكون الدعاية للحق كما تكون للباطل ، ومن الدعاية ما يكون صادقًا ، ومنها ما يكون كاذبًا ، والدعاية الكاذبة : هي الجوفاء التي تسمع منها الجعجعة ، ولا ترى ما تطحن الجعجعة .

فإذا كان الإسلام بحاجة إلى الدعاية الصادقة التي تبث ليستجيب لها الناس ، فإن الدعاية التي تنشرها الصحف والمجلات من انتشار الإسلام في ربوع أفريقيا وأوربا وأمريكا ، يجب أن يقلل منها المسلمون ، وأن يعملوا عملاً صامتًا حتى لا يشعلوا النار في البارود ، ولا يوقظوا الأعداء الذين يفعلون ولا يقولون ، الذين يزدادون ثم يبكون أنهم ينقصون ، ونحن نربح قليلاً ونفرح كثيرًا ونمرح على هذا القليل حتى ننسى أن نعمل عملاً آخر ، ونملأ الدنيا ضجيجًا بأننا ربحنا كل شيء ، فيقوم العدو برد فعل عنيف .

---

(١) هداية المسترشدين للشيخ علي محفوظ ص١٤ .

مثل هذه الدعاية ليس فيها مصلحة للإسلام ، بل فيها مضرة كبيرة ، فليحذر منها الدعاة .

• وسائل الدعوة إلى الإسلام اليوم

الصحف والمجلات : تحتل الصحف اليومية ، والمجلات الأسبوعية مكانًا هامًا في توعية الناس عما يجرى حولهم من الأحداث ، لذلك كانت الأحزاب السياسية ، والهيئات الفكرية والمذاهب الاقتصادية ، كلها تعتمد على الصحف والمجلات ، ولذلك أيضًا صارت أداة من أدوات الدعوة .

وهي بمثابة رسائل النبي ﷺ ، المبعوث بها إلى الملوك والأمراء لدعوتهم إلى الإسلام ، لو أحسن القيام عليها وأداؤها كما يجب إسلاميًا .

فالصحف والمجلات تصل إلى الجهات البعيدة وتلازم من يقتنيها حتى تؤثر في أفكاره وأحاسيسه ، وتفعل فعل السحر في نفسه .

ولقد استعملت المعاهد والجامعات الإسلامية الحديثة هذا الجهاز في وسائل التبليغ والإرشاد ، فكانت مجلة « الأزهر » ، ومجلة « الهدي الإسلامي » ، ومجلة « الدعوة » ، و« الوعي الإسلامي » و« الاعتصام » و« المسلم » وغيرها من المجلات الدينية أكبر عامل في نشر الأفكار الإسلامية الصحيحة .

أما الإذاعات ، فقد تقدمت الهيئات التبشيرية فيها شوطًا بعيدًا ، ولها عدة محطات تذيع منها صوت الإنجيل ، ووفقت مصر إلى عمل محطة إذاعة القرآن الكريم ، وهي تعمل ليل نهار بقراءة القرآن ، ولها برامج طيبة .

أما في الحجاز فإنما أنشأت أخيرًا « رابطة العالم الإسلامي » بمكة المكرمة محطة صوت الإسلام لتذيع الدعوة بمختلف اللغات ، كما يفعل التبشير الصليبي للإنجيل .

أما الإذاعات العامة ، التي هي لسان كل دولة ، فإذا كانت الحكومة مسلمة فرضت للمسلمين نصيبًا كافيًا من برامجها لقراءة القرآن والحديث النبوي والدروس الدينية صباح مساء .

أما إذا كانت الحكومة غير مسلمة ، فلا تفرض للمسلمين ما يكفيهم ، بل تفرض للنصارى أكثر مما تفرض للمسلمين ، بل تفرض للوثنيين أيضًا نصيبًا موفورًا .

لذلك يجب على المسلمين في كل قطر أن يجتهدوا في إنشاء محطة خاصة للدعوة إلى الله ، كما تخصص النصارى في كل بلد .

أما الأفلام السينمائية فإن الديانة النصرانية تبيح تمثيل الأنبياء في المسرحية وتصويرهم في الأفلام ، لعرضها على شاشة السينما أو التليفزيون ، لذلك كانوا يعرضون فيلم المسيح ، وأفلام موسى ، ويوسف وغيرهم .

وأما الإسلام فلا يبيح تمثيل شخصية نبي من أنبياء الله الكرام وأصحابه رضوان الله عليهم ، فإن ذلك افتراء على الله من الممثل ، بأنه ادعى النبوة ، أو تشبه بالنبي ، والقرآن يقول : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (الأنعام:٩٣).

أما شخصيات الفقهاء والعلماء فلا بأس - فيما نرى - بتمثيلها في المسرحيات وتصويرها في الأفلام وعرضها على الشاشات ، على الشروط المفروض وجودها في الممثل من الطهر والصلاح والديانة والأمانة .

● مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن

لقد قررنا آنفًا أن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ ، وأنزل إليه الكتاب ، بالحق ، مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه[1] ، وقد كان الإنجيل مصدقًا للتوراة ، والقرآن مصدقًا للتوراة والإنجيل .

ولكن اليهود كذبوا الإنجيل والنبي عيسى ﷺ الذى جاء به ، لذلك كان كلا الفريقين يكذب بعضهم بعضًا ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ (البقرة:١١٣) .

---

(١) صار رقيبًا عليه وحافظًا ، والمهيمن : المسيطر .

ولما جاء القرآن كذبوا به وبالنبي ﷺ الذي جاء به ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:١١١،١١٢).

اليهود والنصارى هم أول من عارضوا الدعوة الإسلامية وجادلوا النبي محمداً ﷺ ، فرد القرآن عليهم وعلّم النبي كيف يجادلهم بالتي هي أحسن في أسلوب منطقي ، يقدم الحق واضحًا جليًا من غير التعرض لشخصيات الأنبياء ولا لرسالاتهم ، وعلى مثل هذا يجب أن يسير الداعية في مجادلة أهل الكتاب ، ويرى ذلك في سورة آل عمران من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (آل عمران:٥٩-٦١) . إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران:٩٩) .

ومنذ عهد النبي ﷺ والصحابة والتابعين إلى اليوم ، لم يزل أهل الكتاب يتفقدون مطاعن النقد في الإسلام ونبي الإسلام ، وكانوا يثيرون شبهات كثيرة حول شريعة الإسلام وحول سيرة الرسول ﷺ وأزواجه وغزواته ، بل حول القرآن بالذات .

ولقد تكفل القرآن وكتب سيرة الرسول بالرد على الطائفة الأولى من تلك الشبهات .

فعلى الداعية أن يدرسها بإتقان ويستحضر الردود عليها في جميع الأحيان .

أما ما أثاره المستشرقون والمبشرون في الآونة الأخيرة فقد قيض الله له رجالاً ردوا عليه ردًا مقنعًا بحجج دامغة على التحقيق العلمي .

● شبهات حول الإسلام

لقد سبق القول أن المبشرين اهتموا بدراسة الإسلام واللغة العربية على منهج الاستشراق ، لتفقد المطاعن في الإسلام ، وإخراج كتاب - في لغتهم - حتى ينفروا به أهل بلادهم عن الإسلام الذي يصورونه في صور مشوهة .

ولقد نشطوا في هذا الميدان لما تغلبت الدول الأوربية على العالم الإسلامي ، وبسطت نفوذها السياسي على الدول العربية ، وسلطت ثقافتهم على أفكار أبناء العرب والمسلمين ، ونفخت فيهم روح التنكر للإسلام ومبادئه ، ونظمت عليهم الغزو الثقافي ، وانقطع علماؤهم لدراسة الإسلام معكوسًا ومقلوبًا للافتراء والتجني على التاريخ ، فألفوا باسم البحث العلمى في تاريخ العرب والإسلام ، وفي حياة الرسول ﷺ أسفارًا ومجلدات ، كلها تخطيط لقلع الإسلام من جذوره ، وهدمه من قواعده ، والقضاء على المسلمين في عقر ديارهم .

ومن الذين اشتهروا بما كتبوا عن الإسلام جولد تسيهر اليهودي في كتابه «الشريعة والعقيدة» و«درمنجم» الفرنسي في «حياة محمد» و«مرجليوث» و«جيب» وكلهم دسوا السم في العسل .

فقام بعض الغيورين بترجمة تلك الكتب من اللغات الأصلية التي كتبوها بها ، ونقلوها إلى العربية ، ثم تولى العلماء الرد عليها بالحجج الدامغة .

وأشهر من قام بهذا المنهج الشيخ محمد عبده ، وتلميذه محمد رشيد رضا والأستاذ محب دين الخطيب . ومحمد فريد وجدي ، وأحمد حسن الزيات ، وبهجت الأثري ، وعباس محمود العقاد ، ومحمد الغزالي ، وسيد قطب ، ومحمد قطب في كتابه «شبهات حول الإسلام» ، والكاتب السعودي أحمد محمد جمال في كتابه «مفتريات حول الإسلام» .

وفي الهند قام أناس غيورون على الإسلام فألفوا في شرح الإسلام وعرضه في أسلوب يفهمه الغرب كتبًا ضخمة ، منهم الأمير علي في «روح الإسلام» ، والشاعر إقبال ، وأبو الأعلى المودودي ، وأبو الحسن الندوي . . . وأمثالهم .

ومنهم عبد الله يوسف ، في نقل معاني القرآن إلى الإنجليزية .

وبالجملة فإن للمسلمين في الهند والسند اليد البيضاء في عرض الإسلام لغير المسلمين في أوربا وأمريكا .

● ثناء الأجانب على الإسلام

ومن المستشرقين من درسوا الإسلام حق الدراسة ، وقارنوا بينه وبين الأديان الأخرى ، وقارنوا بين نبي الإسلام وسائر الأنبياء الآخرين ، ولم يسعهم إلا أن اعترفوا بتفوقه وصلاحية شريعته لكل زمان ومكان ، منهم « توماس أرنولد » ، و« توماس كارليل » ، و« جوستاف لوبون » ، وإن كانوا لم يعلنوا إسلامهم ، ولكنهم أنصفوا في حكمهم وقالوا الحق .

وآخرون منهم أسلموا ، وألفوا في الرد على مفتريات المغرضين منهم ، كأمثال « ناصر الدين ـ اتيين رينيه » الفرنسي ، له كتب كثيرة في هذا الصدد .

● معركة الإسلام بين الدين والدولة

لقد قاست الدول الأوربية طغيان الكنيسة النصرانية التي ظلت كابوسًا جاثمًا على صدور ملوك أوربا ردحًا من الزمان ، يعزلون من يشاءون ، أو يولون من يشاءون ، حتى سئمت منها الملوك فنادوا بضرورة فصل الدين عن الدولة ، فتم ذلك مع الإصلاحات التي أعقبت الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ .

ولما دخل المستعمرون البلاد الإسلامية حسدوا المسلمين على ما أدركوهم عليه من الشريعة الراقية والنظم العالية ، فحاربوها بدسائسهم وحيلهم ، فقالوا : إن التحرر من القيود الدينية ـ والشريعة الإسلامية على الأخص ـ هو الحضارة والمدنية والتقدمية :

كضـــرائر الحســـناء قلـــن لوجههـــا حســـدا وبغضًـــا : إنـــه لـــدميم

واحتجوا بأن الغرب إنما تقدمت بلاده بعد تحررها من قيود الكنيسة ، واستندوا في هذه الدعوى إلى وقائع التاريخ المسيحية مع الملوك والعلماء ، وساووا بذلك ـ زورًا وبهتانًا ـ بين أهل الكتاب المزيفون والدين الإسلامي ،

فتلقى بعض المسلمين ـ ممن لا علم له بدينه ـ هذه المزاعم ولم يغربلها ، فدعا إلى التحرر والانطلاق ، وإلى تقليد الغرب في التحلل من القيم الروحية ومن الدين ، ودعا إلى نبذ الشريعة واستبدالها بالقوانين الوضعية ، وإبطال الخلافة التي هي رمز الوحدة الإسلامية .

وشر ما في الأمر أن الذين يدعون إلى ذلك هم من العلماء المسلمين .

وأول من مال إلى هذه الدعوى المزيفة من العلماء العرب الأستاذ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» لكن قام بالرد عليه فورًا عدد من علماء الأزهر وجردوه من ألقاب العلم وردوا عليه ، ومنهم : الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية الأسبق وله في ذلك كتاب قيم . . ويوسف الدجوي ، وأحمد عرفة ، ثم السيد محمد رشيد رضا ، ومحب الدين الخطيب .

ثم وقف العالم الإسلامي والعربي في مفترق الطرق بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي في المذاهب الاقتصادية ، من الشيوعية ، أو الاشتراكية ، والرأسمالية ، أو بين المذاهب السياسية كالديمقراطية ، والدكتاتورية ، أو الأرستقراطية .

فتعهد كبار الكتاب شرح مبادئ الإسلام ومقاصده ونظمه في الاقتصاد والحكومة والسياسة حتى تجلى النظام الإسلامي واضحًا ـ لا شرقيًا ولا غربيًا ـ بل وللإسلام نظامه الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والدولي مستقلاً غير مستمد من أي نظام آخر .

والذين أبلوا في هذا الشأن بلاء حسنًا منهم : الشهيدين عبد القادر عودة ، وسيد قطب ، والأستاذ محمد قطب ، والشيخ الغزالي ، والدكتور مصطفى السباعي ، والأستاذ أبو الأعلى المودودي ، والشاعر محمد إقبال ، وأمثالهم في الهند وباكستان ، وفي مصر ، وسوريا ، والسعودية أخيرًا .

● تطوير الفقه الإسلامي

ثم اتجهت أفكار الفقهاء إلى البحث والتنقيب في أصول المذاهب وفروعها ، والمقارنة بينها وبين غيرها لتطوير الفقه مع أحداث الزمن وتطوراته ، فكان الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق أول من نحا هذا المنحى ، ثم سار على نهجه الشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ محمد يوسف موسى ، والأستاذ محمد أبو زهرة ، والشيخ أحمد مصطفى الزرقا .

ولقد تعهد مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر بإخراج الدستور الإسلامي لكل من يريد أن يعمل به من الدول الإسلامية .

ويوافق إعداد هذا الكتاب وإرساله إلى المطبعة ـ في طبعته الثانية ـ استعداد الأزهر لعقد المؤتمر التاسع لمجمع البحوث الإسلامية لإصدار الدستور الإسلامي على الشكل الذي يمكن كل دولة إسلامية تريد أن تطبق حكم الإسلام في السياسة والحكومة والاقتصاد .

● الدعوة بين التبليغ والإصلاح

إن المسلم الذي يعيش في الأوساط الإسلامية ، ويشهد امتلاء المساجد بالمصلين ، ويرى في موسم الحج الملايين يحضرون الحج كل عام من كل فج عميق ، إن الذي يرى هذا ويقتنع به يقول : إن الإسلام بخير ، ولا داعي لنشره خارج نطاق الأمم الإسلامية ، بعد أن بلغ المسلمون ما بلغوا من العدد ، وإنما يجب أن يقتصر الدعاة على إصلاح أحوال المسلمين في داخل مجتمعهم ، يدعون غير المسلمين إلى الإسلام بصلاح أحوالهم واستقامتهم على الإسلام الصحيح .

لذلك ظل الدعاة يهتمون بالإصلاح الداخلي أكثر من التبليغ الخارجي ، حتى أفسحوا المجال للأديان الأخرى أن يتسع نطاقها ، ويكثر معتنقوها في أمم غير إسلامية .

إن إصلاح أحوال المسلمين حق واجب لا بد منه ، ولكنه لا ينبغي أن نكتفي به ، فإن الذي يعيش في وسط مزدوج بين المسلمين وكفرة ومسيحيين وغيرهم ، ويشهد الصراع العنيف القائم بين أصحاب هذه الأديان لا يتردد في أن يقول :

إن الدعاة الإسلاميين لا يزالون مقصرين في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام .

وما دمنا نعتقد أن الإسلام رسالة عالمية لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (سبأ:٢٨) .

وما دام على وجه الأرض غير مسلم ، فإن أمانة تبليغ دعوة الإسلام إلى غير المسلمين تقع علينا نحن المسلمين .

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه « مع الله »[١] : « في العالم اليوم ما يزيد على ألفي مليون إنسان ، ويقرب عدد المسلمين من ستمائة أو ثمانمائة مليون ، والوثنيون أربعمائة مليون ، والشيوعيون ستمائة مليون ، والمسيحيون ستمائة مليون .

ومن هؤلاء ألوف مؤلفة لم تبلغهم الدعوة أصلاً ، أو وصلتهم في صورة مشوهة ، والمسلمون تركوا الحق يخدم نفسه بنفسه ، وينصر قضاياه اعتماداً على ما فيها من صواب ، ونسوا أن تلفيق الشبه وتجميع الحيل يمكن أن يصد الجماهير عن الإيمان ، ويعلق أبصارهم بخدع لا قيمة لها ، وكان من أسباب انحسار المد الإسلامي في بعض الأقطار » اهـ . بتصرف[٢] .

---

(١) ص : ٣٩ - ٥٢ .

(٢) والشيخ الغزالي كاتب إسلامي حر ، له أسلوب خاص يعرف به ، وقد أسس بقلمه دائرة معارف إسلامية ، يتعلم منها القارئ مبادئ الإسلام ومقاصده ، ويتغذى فيها غذاء روحيًا منعشًا ، ليتخرج في الله إلى الله ، وكذلك المرحوم سيد قطب في كتابه « ظلال القرآن » .

ويقول شيخ الأزهر السابق المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود في رسالته «أوربا والإسلام» : «أين دعاتنا في الشرق والغرب ؟ أين مبعوثونا ؟ أين المبشرون منا؟ لا شيء من ذلك مطلقًا ، ومن المعروف أن مبعوثي الحكومة ، ومبعوثي الأزهر إلى الأقطار الخارجية إنما بعثوا لتعليم الحساب ، والخط ، والإملاء ، واللغة العربية ، في مدارس إسلامية ، ابتدائية وإعدادية ، وثانوية . . ليس لنا في الخارج قط مبعوثون .

وإذا كان الدين الإسلامي ينتشر ، فإنما ينتشر بقوته الذاتية ، رغم الهجوم عليه ، ورغم العقبات التي تعترض طريقه ، ولنقارن ذلك كله بالإرساليات التبشيرية ، ومن أمامها وخلفها المستشفيات ، والملاجئ ، والمدارس ، والمعاهد ، والمال يغدق ، والوظائف تهيأ .

ولننظر كفتي الميزان : إحداهما لا شيء فيها ، وتلك كفة المسلمين بالنسبة للإسلام ، والأخرى فيها كل شيء ، وتلك هي كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية» .

«وأقول» : لقد تغير الوضع بعد كتابة الشيخ لهذه الكلمات ، فنشط الأزهر ، ونشطت المملكة السعودية بإرسال المبعوثين إلى الدول الأفريقية وإلى أوربا وأمريكا ، حتى لقد امتلأ العالم الإسلامي بعدد من المبعوثين الذين جمعوا بين الدعوة والتعليم ، غير أن المطلوب منهم لم يحصل بعد .

لأن أكثر الدعاة منهم لا يجيدون دعوة غير المسلمين ، بل يجيدون إلقاء الخطب العربية على المسلمين في المساجد .

كما أن أكثر المدرسين منهم لا يجيدون تعليم غير العربي حتى يفهم العربية فيتلقى بها منهم دروس العلم ، إنما يجيدون تعليم من كان متعلمًا ، أو كان عربيًا .

ويجب على الدعاة الذين يبلغون الدعوة إلى غير العرب أن يتعاونوا مع أهل البلاد فذلك خير وأحسن تأويلاً .

أما الإصلاح الداخلي فهو قسمان :

قسم هو : تذكير المسلمين ، وقسم هو : إصلاح المنحرفين .

أما تذكير المسلمين فهو : النصح والإرشاد ، على ما ورد في الآية الكريمة من قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات:٥٥) .

ويبدأ هذا بتذكيرهم ما لهم وما عليهم ، في إخلاص العبادة لله تعالى بقوله : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة:٥) .

ثم بتذكيرهم ما لهم وما عليهم في العبادات ، من : طهارة ، وصلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج ، وسائر أعمال البر والصلاح .

ثم بتذكيرهم ما لهم ، وما عليهم من أحكام في المعاملات ، من حل البيع ، وحرمة الربا ، والغش ، ومن شروط الدين والعهود والمواثيق .

وكذلك ما لهم وما عليهم من أحكام في الزواج من شروط النكاح ، وحقوق الزوجين ، والطلاق والعدة والميراث .

وكذلك ما لهم وما عليهم من أحكام في القضاء والشهادة والعقوبات ، ثم ما يتعلق بالآداب العامة ، من : التحلي بالأخلاق الكريمة ، والتخلي عن الذميمة ، كل ذلك قد انطلقت به ألسنة الوعاظ والخطباء في كل مكان وزمان ، وجرت به أقلام الكُتَّاب حتى اكتظت المكتبات الإسلامية بالمختصرات والمطولات المكتوبة فيه .

أما إصلاح المنحرفين من مرتكبي الكبائر ، من : الشرك ، وقتل النفس ، والزنا ، وشرب الخمر ، والغيبة ، والنميمة ، وما إلى ذلك مما لا ينحصر من المعاصي .

ولقد عرف العالم الإسلامي كثيرًا من الخطباء والوعاظ الذين أصلحوا بوعظهم المجتمع الفاسد ، حتى انقلب مجتمعًا إسلاميًّا صحيحًا ، فهؤلاء الدعاة المجددون المصلحون .

وعرف العالم الإسلامي كثيراً من الخطباء والوعاظ ، الذين يخطبون من أعلى المنابر في كل جمعة ، وكل مناسبة ، ولكن لا تؤثر خطبهم على المجتمع : إما من أجل سوء إلقاء الخطبة وعدم إجادتها ، وإما من أجل قصور الخطيب أو الواعظ نفسه أن يكون قدوة حسنة .

فإلى أمثال هؤلاء يسوق الراغب الأصفهاني نصيحته التي قال فيها :

« حق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ ، ويبصر ثم يُبَصِّر ، ويهتدي ثم يهدى ، ولا يكن دفترًا يفيد ولا يستفيد ، ومِسَنًّا يحد ولا يقطع ، بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء ولها أكثر مما تفيد ، وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحمى أكثر مما تنبل ، ويجب أن لا يجرح مقاله لفعاله ، ولا يكذب لسانه بحاله ، فيكون ممن وصفهم الله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ (البقرة: ٢٠٤،٢٠٥) .

ونحو ما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[1] : « قصم ظهري رجلان : جاهل متنسك ، وعالم متهتك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم ينفرهم بتهتكه » .

والواعظ ما لم تكن مع مقاله فعاله لم يُنْتَفع به ، وذلك أن علمه مُدْرَك بالبصر ، فأكثر الناس أصحاب الأبصار دون البصائر ، فيجب أن تكون عنايته بالذي لا يُدْرَك إلا بالبصيرة ، ومنزلة الواعظ من الموعوظ منزلة المداوي ، فكما أن الطبيب إذا قال للناس لا تأكلوا كذا فإنه سم ، ثم رأوه آكله عد سخرية وهزؤًا ، وكذلك الواعظ إذا أمر بما لا يعمله ، وبهذا النظر قيل : يا طبيب طبب نفسك ، بل قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ٢،٣) .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٩٥ .

● الداعية بين وظيفة الحكومة والعمل الحر[1]

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (فاطر:٣٢) .

كان العلماء والأمراء في عهد الخلفاء الراشدين يسيرون في موكب واحد ويهدفون إلى غاية واحدة وهي حماية الدعوة ونشرها بكل وسيلة من الوسائل السلمية والوسائل الجهادية .

ولما آل الأمر إلى بني أمية انفصلت الدعوة عن الدولة وانقسم الدعاة إلى ثلاثة : قسم اندمجوا في موكب الدولة وقبلوا منها الوظيفة كالحسن البصري وأبو يوسف القاضي .

وقسم ابتعدوا عن الدولة وفروا من وظائفهم وهداياهم كأبي حنيفة وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل .

وقسم توسطوا بين الأمرين ، لم يقبلوا وظائف الدولة ولم يبتعدوا عنها ، ولم يألوا جهدهم في تقديم نصائحهم ، كمالك بن أنس إمام المدينة في زمانه .

والذين امتنعوا عن قبول الوظيفة من الدولة احتجوا بأنها كانت نبوة ورحمة ثم صارت ملكًا عضوضًا .

وكان الدعاة من غير موظفي الدولة يأكلون من كسب أيديهم ويبتعدون عن بطانة السلاطين الظالمين مستدلين على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (هود:١١٣) وبما رُوِيَ عن النبي ﷺ من الأحاديث منها ما جاء عن ابن مسعود : « إن رجلاً ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج فلا دين له ، قيل له : لم ؟ ! قال : لأنه يرضيه بسخط الله تعالى ».

---

(١) هذا الفصل منقول من كتابنا « الإسلام بين دعاته وأدعيائه ».

وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال : «أوحى الله إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يلبسون الناس مسوح الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، إياي يخادعون وبي يستهزؤون ، لأفتحن لهم فتنة تذر الحليم حيران» .

وقال أبو ذر لسلمة : «يا سلمة ، لا تغشى أبواب السلطان فإنك لن تصيب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينك أفضل منه» .

وروى الترمذي عن النبي ﷺ قال : «سيكون من بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد على الحوض» .

وقال : «العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم» .

وقال : «شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء» .

وقال حذيفة : «إياكم ومواقف الفتن : قيل : وما هي؟ قال : أبواب الأمراء .. يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه» .

وقال الفضيل بن عياض : «ما ازداد رجل من ذي سلطان قربا إلا ازداد من الله بعدًا»[1] .

وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول : «إن في هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين» .

لذلك اتخذ أكثر الدعاة لأنفسهم أعمالاً حرة ، وكان أبو حنيفة بزازًا يبيع الثياب ، وأحمد بن حنبل يعمل ويتجر وكان يأمر أولاده أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرضوا للتجارة وأصحابه من المالكين أن يلزموا ضياعهم .

---

(١) راجع في هذه الأحاديث «إحياء علوم الدين» للغزالي ـ الجزء الثاني .

وكان سفيان الثوري تاجرًا ورأس ماله سبعون دينارًا .

أما الذين لم يجدوا مندوحة من القرب من السلاطين من غير أن يقبلوا وظائفهم فكانوا لهم ناصحين ، كالحسن البصري الذي كتب وصية لعمر ابن عبد العزيز في وصف الإمام العادل ، والإمام مالك الذي كتب لهارون الرشيد ، فكانوا آمرين لهم بالمعروف وناهين عن المنكر ، لا يخافون هيبة السلطان ولا سطوته ، ولا يخافون في الله لومة لائم . . مثال ذلك :

لما قدم هارون الرشيد المدينة بلغه أن مالكًا بن أنس عنده الموطأ يقرأه على الناس فوجه إليه يحيى البرمكي وزيره يطلب من مالك أن يأتيه ويحمل إليه كتابه فيقرأه ، فجاء البرمكي إلى مالك فأخبره ، فأجابه مالك : « قل له : إن العلم يُزَار ولا يزور ، وإن العلم يُؤْتَى ولا يأتي » .

ثم توجه مالك إلى الخليفة لينصحه فقال له : « إن الله رفعك وجعلك في هذا الموضع فلا تكن أنت أول من يضع عز العلم فيضع الله عزك » .

فقام الرشيد فمشى مع مالك إلى منزله يسمع منه الموطأ . . وهكذا كان السلف الصالح أقسامًا ثلاثة : قسم لا يقترب من السلاطين ولا يقبلون منهم الوظيفة ولا الهدايا ، وقسم يدخلون على السلاطين لنصحهم ويقبلون منهم الهدايا في غير مذلة ولا مسكنة ، وقسم يقبلون منهم الوظيفة كالقضاء والكتابة ولكنهم لا يرضونهم فيما يسخط الله .

أما الدعاة اليوم فأكثرهم موظفون تحت الدولة .

وأئمة المساجد والخطباء والوعاظ كلهم تحت وزارة الأوقاف التي ضمتها الدولة إلى أجزائها فكيف يتمكنون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم يخافون فوات لقمة عيشهم . . قال شاعر :

قالت الضفدع قولاً فهمته الحكماء

في فمي ماء ، وهل ينطق من في فيه ماء

وليس في العالم الإسلامي أوقاف وحبوس مستقلة خارج إدارة الدول غير الأوقاف والحبس التي تملكها الشيعة لذلك كان الدعاة عندهم أحرارًا .

أما في غير نطاق الشيعة فالجامعات والجوامع والمعاهد كلها تحت إدارة الحكومات التي تولى عليها من يركن إلى حكومتهم ويميل إلى إرادتهم ، ومن يقل الحق يعزل عن منصبه ، لذلك نجد المشائخ والأئمة والوعاظ يمدحون ويدعون بالخير لرؤساء الحكومات الصالحة وغير الصالحة على كل منبر إثر كل خطبة عند كل جمعة .

وليس هناك منابر حرة غير التي تديرها المنظمات والجمعيات الإسلامية الحرة وهي قليلة في البلدان العربية لذلك فالأمل أكيد في المنظمات الحرة أن تصدع بما أمر الله تعالى .

● مستقبل الدعوة في القرن الخامس عشر ـ أو الدعوة بين اليأس والرجاء

لا يخلو أمر الدعوة في القرن الخامس عشر الهجري من أحد أمرين :

أحدهما : أن ينتهي الدين كله من الأرض ولا يبقى له عين ولا أثر .

ثانيهما : أن يصير أهل العالم كله مسلمين مؤمنين بالله قبل أن تقوم القيامة على شرار الناس . . ولكل من الاحتمالين دلائل وقرائن .

● دلائل الاحتمال الأول

لقد شاهدنا من مخلفات القرن الرابع عشر الهجري وقوع ما تنبأ به النبي ﷺ في جملة أحاديث من أشراط الساعة الكبرى والصغرى ، وما أخبر به من الفتن والملاحم ما يدل على قرب الساعة وأهمها ما جمعها أبو هريرة فيما روى البخاري ونصه ما يلي :

روى البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج ـ وهو القتل ـ وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم الرجل من يقبل صدقته ،

وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي فيه ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ (الأنعام:١٥٨) ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه - أي يصلحه بالطين - فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» فهذه ثلاث عشرة علامة جمعها أبو هريرة في حديث واحد ، وقد ظهر أكثر هذه العلامات[1] .

وإن كان قد بدأ ظهور بعضها منذ القرن الأول ولا يزال يتتابع ظهورها قرنًا بعد قرن إلى اليوم مما يجعل المؤمن قلقًا ويائسًا في الدعوة إلى الإصلاح .

١- لقد روى البخاري عن الزبير بن عدي قال : أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال : «اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم» .

٢- وفي رواية ابن ماجه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدنيا إلا إدبارًا ولا الناس إلا شحًّا ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ، ولا المهدي إلا عيسى ابن مريم» .

٣- وعنهما أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : «إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء» .

لقد شاهدنا من مخلفات القرن الرابع عشر عجائب وغرائب تدع الحليم حيران .

شاهدنا مع تقدم العلوم والحضارة إلحادًا حيث يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا ولا يزال يتغلغل الإلحاد في أوساط العباد .

---

(١) الأنوار المحمدية ص ٤٨٩ .

وشاهدنا من وسائل الترف والرفاهية والميوعة والنعمة ما يحمل على الطغيان : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق:٦،٧) .

وشاهدنا كذلك من آلات الدمار والهلاك ما يبيد الحرث والنسل ويمثل الجحيم حيث كانت الحروب تزداد ويلاً ودماراً كلما تقدمت الحضارة والصناعة .

لقد أحصى العلماء عدد الموتى والهلكى في الحرب العالمية الثانية ما يقرب من ٢٥ مليونًا من النسمة ما عدا الخراب والدمار الذي منيت به البلاد والعقار .

ويعلم كل واحد منا أن الحرب العالمية الثالثة إذا وقعت في القرن الحاضر أو المقبل فإنها لا تبقى ولا تذر ، جنبنا الله تعالى كل حرب ضروس .

ولقد شاهدنا أيضًا في هذا القرن غزو الإنسان للفضاء وهبوطه على سطح القمر ولا يزال يحاول الهبوط على الكواكب الأخرى من المجموعة الشمسية .

ومن يدري هل يكون في القرن الخامس عشر غزو الفضاء للأرض ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (الملك:١٧،١٨) .

● **أما دلائل الاحتمال الثاني** : فهناك أحاديث تحمل على عدم القنوط واليأس وتدعو إلى مواصلة الدعوة إلى الله على كل حال انطلاقًا من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٤) .

أما الأحاديث فمنها ما رواه مسلم « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله » .

وما رواه أبو داود « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » .

ومنها ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها» .

ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء:١٥٩) .

وروى أبو داود عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني - أو من أهل بيتي - يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا» .

وحديث آخر يقول : «أمتي كالمطر ، لا يدري أوله خير أم آخره» .

هذه الأحاديث وبعض دعوات الإصلاح التي نجحت في مختلف الأماكن عبر التاريخ الإسلامي إلى اليوم إلى جانب ظهور أشراط الساعة والفتن والملاحم في كل عصر لمما يؤكد في نفس الدعاة ضرورة العمل والدعوة إلى الإصلاح .

وإني على انتظار تحقيق ما قال الله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:٥٣) .

وسوف يتحقق وقوع ما أخبر الله به من اكتشاف آيات الله في آفاق الأرض والسماء . .

وسوف يخبرنا رواد الفضاء وطيارو الأجواء ما يريهم الله من آياته التي تدل على أنه الحق الواحد ، فبذلك يكون العلم الحديث نصيرًا للإيمان بالله عز وجل وأداة الدعوة إليه .

* * *

خاتمة

إن الغرض الأساسي من تعلم صناعة ما من الصنائع ، يهدف إلى التمكين من تطويع هذه الصناعة لمن يتعلمها ، لكي يؤديها على وجه الجودة والإتقان .

وبعبارة أخرى يهدف إلى كسب الخبرة والمهارة في الصناعة عبر تجارب السابقين إلى هذه الصناعة ، حتى يسير الخلف على أنجح الوسائل والأساليب التي سار عليها السلف الذين مهروا في الصناعة ، ونجحوا فيما يهدفون إليه من غاية الدعوة .

على أن المهارة في أي مهنة أو صناعة لا يقتدر عليها أحد إلا بطول التجارب ، وحسن الصبر ، وإرشاد الأستاذ ، كما قال الشاعر :

ألا لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن مجموعها ببيان

ذكاء ، وحرص ، واصطبار ، وبلغة ... وإرشاد أستاذ ، وطول زمان

فالهدف من دراسة تاريخ الدعوة إلى الله من عهد أولي العزم من الرسل ومن صاحبهم ومن تبعهم بإحسان ، هو كسب التجارب الطويلة :

ومن وعى أخبار من قبله ... أضاف أعمارًا إلى عمره

كما أن الهدف من دراسة آراء العلماء وأفكار الكُتَّاب وتوجيهات الدعاة من مختلف الأدوار ، هو إرشاد أستاذ خبير ، وتثقيف دليل خريت[1] .

وبعد هذا وذاك كله ، فلابد للداعية من تجديد العهد بمصادر الدعوة ومنابعها ، التي تفيض ولا تغيض أبد الآبدين ، وهي تتمثل في النصيحة الآتية :

أولاً : من أراد أن يكون داعية حقًّا ، فعليه أن يرتب على نفسه كل يوم أورادًا ووظائف من القرآن الكريم ، الذى هو ينبوع الدعوة الفياض ، ومصدرها

---

(١) الخريت هو : العارف بخبايا الطرق . واستعيرت هنا لمعرفة طرق الدعوة إلى الله فإنها تحتاج إلى عارف بخباياها .

الجياش ، وهو الحديقة الفيحاء التي لا يمر بها الداعية إلا وجد فيها ما يطيب له من الثمار الناضجة فيقتطفه ، ذلك لأن القرآن الكريم سر نجاح الداعي ، وإلهام قلبه ، وروح يقينه ، وقوة برهانه ، ومنهاج سلوكه .

ثانيًا : عليه أن يلازم كتب الأحاديث النبوية ، كصحيح البخاري ، ومسلم ، وسائر الصحاح ، فإنها مصباح الظلام ، وقاموس الإصلاح ، ومعجم الإرشاد والتوجيه السديد .

ثالثًا : التاريخ الإسلامي من أول عهد الخلفاء الراشدين ، ففيه مواد خصبة ، وثروة طائلة وغذاء دسم لكل من يستوحي الوعظ والإرشاد ، ليتزود به في نفسه حتى يستطيع أن يمد غيره .

رابعًا : كتب الأخلاق والتصوف العلمي ، ففيها تربية النفوس على الفضائل وتطهير القلوب من الرذائل ، قال الجاحظ في البيان والتبيين : « إن من تمام آلة الدعوة أن يكون الداعي إلى الله صوفيًا » .

ذلك لأن التصوف الصحيح طاقة خلقت ولا تزال تخلق أجيالاً صادقة للدعوة إلى الله .

ومن أراد أن يدرك ذلك ، فليطالع « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصفهاني ، و« طبقات الصوفية » لأبي عبد الرحمن السلمي ، و« قوت القلوب » لأبي طالب المكي ، فإنه يدرك حقيقة ما في التصوف الصحيح من طاقة روحية .

خامسًا : تاريخ الدعوة والدعاة ، ذلك لأن التاريخ لا يُكْتَب ولا يُدْرَس لمجرد الذكرى أو السلوى ، لا سيما تاريخ الدعوة إلى الله .

فإن القرآن لم يكن ليهتم بأخبار الرسل وقصص الأنبياء إلا للعبرة والعظة وإذا نحن استعرضنا دعوات الرسل ، وقفونا أثرها بالتطورات التي استهدفت لها تلك الدعوات بعد الرسل ، على أيدي أصحاب الدعوة وأتباعهم والتابعين لهم ، إنما نفعل ذلك لنكون على بصيرة فيما نتحمل من المسئولية ، وقد عَلَّم الله

رسوله ﷺ أن يدعو على بصيرة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (يوسف:١٠٨) .

وكل من تربى على هذا المنهج الذي ذكرناه ، ثم لم تتبلور الدعوة في ذهنه ، ولم يتصور في عقله منهج من تلك المناهج ولا أسلوب من تلك الأساليب فلا يقحم نفسه في ميدان الدعوة ، فإنه لا يصلح لها ، فنقول لمثله ما قالوا :

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

وبعد . . فإن الدعوة إلى الله يجب أن تكون عملاً خالصًا لوجه الله تعالى : لا لغرض دنيوي من مال أو جاه ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سبأ:٤٧) .

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾

(آل عمران:٥٣) .

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران:١٩٣) .

● **توجيهات عامة**

يجب على الداعية أن يحفظ نصوصًا مشهورة في الدعوة أهمها ما يلي :

أولاً : خطب النبي ﷺ وهي قصيرة وجيزة .

ثانيًا : ما تيسر من خطب الخلفاء الراشدين وبالأخص خطب الإمام علي في نهج البلاغة .

ثالثًا : وصية سيدنا عمر لأبي موسى الأشعري في شئون القضاء .

رابعًا : وصية الحسن البصري لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في وصف الإمام العادل .

خامسًا : رسالة الإمام مالك إلى هارون الرشيد .

سادسًا : رسالة القاضي أبي يوسف إلى هارون الرشيد ، في أول كتاب الخراج .

سابعًا : وصية الإمام الغزالي في اجتناب المعاصي في « بداية الهداية ».

● من أهم مراجع الداعية في مكتبته

نسجل فيما يلي أسماء الكتب التي هي من أهم مصادر هذا البحث ، ولا بد للعامل في الدعوة إلى الله أن تحتوي عليها مكتبته ليراجعها في كل الفترات ، ويتزود منها :

١- كتاب إحياء علوم الدين ـ للشيخ الغزالي

٢- منهاج القاصدين ـ لابن الجوزي

٣- رياض الصالحين ـ للنووي

٤- تنبيه الغافلين ـ للسمرقندي (غير أن فيه أحاديث ضعيفة)

٥- شعب الإيمان ـ للبيهقي

٦- دعوة الرسل ـ للشيخ محمد أحمد العدوي

٧- هداية المرشدين ـ للشيخ علي محفوظ

٨- مع الله ـ للشيخ محمد الغزالي

٩- رجال الفكر والدعوة في الله ـ للسيد أبي الحسن الندوي

١٠- الدعوة التامة ـ للشيخ ابن علوي الحداد الحضرمي

١١- طريق الدعوة ـ مجموعة مقالات لسيد قطب

١٢- شبهات حول الإسلام ـ لمحمد قطب

١٣- بحوث مجمع البحوث الأزهري في الدعوة ، وبحوث مؤتمر إعداد الدعاة بالمدينة المنورة .

* * *

وصية سيدنا عمر لأبي موسى الأشعري في القضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله عمر بن الخطاب ـ أمير المؤمنين ـ إلى عبد الله بن قيس . .
سلام عليك ، أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

«البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» ، و«الصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً» .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس فيه كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمل إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهي إليه ، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه ، وإلا استحلت عليه القضية فإنه أتقى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلودًا في حد أو مجربًا عليه شهادة زور أو ظنينا في ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والأيمان ، وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الزخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه : كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلمه الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام . . » .

كتاب أبو يوسف إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد
بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما كتب به أبو يوسف رحمه الله إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد . .

أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وأدام له العز في تمام من النعمة ، ودوام من الكرامة ، وجعل ما أنعم به عليه موصولاً بنعيم الآخرة الذي لا ينفد ولا يزول ، ومرافقة النبي ﷺ .

إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتابًا جامعًا يعمل به في جباية الخراج ، والعشور والصدقات والجوالي[1]، وغير ذلك ما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصلاح لأمرهم . وفق الله تعالى أمير المؤمنين ، وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك ، وسلمه مما يخاف ويحذر ، وطلب أن أبين له ما سألني عنه مما يريد العمل به ، وأفسره وأشرحه . وقد فسرت ذلك وشرحته .

يا أمير المؤمنين ، إن الله وله الحمد قد قلدك أمرًا عظيمًا ، ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب . قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم . وليس يلبث البنيان ـ إذا أسس على غيري التقوى ـ أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه . فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة في العمل بإذن الله .

---

(١) جمع جالية ، وأصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطنا آخر ، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم عمر رضي الله عنه عن جزيرة العرب « جالية » ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزية التي أخذت منهم . ثم استعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه .

لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت ، إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فإنه لا عمل بعد الأجل . إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه . فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ، ولا تزغ فتزيغ رعيتك . وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب . وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى ، وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد ، ولا تخف في الله لومة لائم . واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان ، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي ، ومن يتق الله يقه . واعمل لأجل مفضوض ، وسبيل مسلوك ، وطريق مأخوذ ، وعمل محفوظ ، ومنهل مورود ، فإن ذلك المورد الحق والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته ، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافون عقوبته وكأن ذلك قد كان . فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل ، يوم تزل فيه الأقدام وتتغير فيه الألوان ، ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب . يقول الله تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج:٤٧) .

وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المرسلات:٣٨) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الدخان:٤٠) .

وقال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ (الأحقاف:٣٥) .

وقال : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ (النازعات:٤٦).

فيالها من عثرة لا تقال ، ويا لها من ندامة لا تنفع ، إنما هو اختلاف الليل والنهار : يبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، ويجزي الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب .

فالله الله فإن البقاء قليل والخطب خطير والدنيا هالكة وهالك من فيها ، والآخرة هي دار القرار ، فلا تلق الله غدًا وأنت سالك سبيل المعتدين فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم . وقد حذرك الله فاحذر ، فإنك لم تخلق عبثًا ، ولن تترك سدى . وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به ، فانظر ما الجواب . واعلم أنه لن تزول غدًا قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة ، فقد قال ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع : عن علمه ما عمل فيه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسده فيم أبلاه » فاعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها فإن ما عملت فأثبت فهو عليك غدا يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد . وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله . فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى في عينك وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه ، وتنكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها لا عليها ، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله وأورده أماكن الحياة والنجاة ، فإذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضر ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ووقاه الله أضعاف ما وفى له . فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفى ربها حقها منك ويضيعك ـ بما أضعت ـ أجرك ، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم . وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره ، وعليك ما ضيعت منه ، فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنْسى . ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك . ولا يضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الأيام والليالي كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحًا وتهليلاً وتحميدًا ، والصلاة على رسوله ﷺ نبي الرحمة وإمام الهدى ﷺ . وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نورًا يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما

بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليها . وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود ورد الحقوق إلى أهلها بالتثبت الأمر البين ، وإحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعا ، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت . وجور الراعي هلاك للرعية ، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة . فاستتم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧) . وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد ، والعمل بالمعاصي كفر النعم ، وقل من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط الله عليهم عدوهم . وإني أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي مَنَّ عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه . فإنه ولي ذلك والمرغوب إليه فيه .

وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته لك وبينته ، فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحًا ، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه . وإني لأرجو ـ إن عملت بما فيه من البيان ـ أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيتك فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم وكتبت لك أحاديث حسنة ، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه ، مما تريد العمل به إن شاء الله . فوفقك الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك ، وعلى يديك .

* * *